الـــــــــــــــرؤوس

• ثائر زكي الزعــــزوع*

الفصل الأول

كان يَفْترش الأرضَ طوالَ حياته، ولم يَعْرفوا أنّه تغطّى بغير سماء اللّه الواسعة. وقد أَعْلن فجرَ أحد الأيّام استيلاءه على رقعة أرضٍ واسعة، وبداية حربه الكبرى أنّه يمشي الآن في الشوارع مختالاً، ولم يَسْتطع أحد أن يتحدّث إليه أو أن يَسْأله أيّ سؤال.

اقترَبَ منه قاضي القضاة وحيّاه، ثم دعاه لأن يَدْخل معه دارَ القضاء كي يَحْكما الناسَ بالعدل. لكنّه شكر قاضي القضاة وأَخْبره أنّ عملَه أكبرُ من ذلك. نزل الوالي إلى السوق، وحين رآه يسير مختالاً نزل عن دابته ودعاه ليركبها. لكنّه انحنى للوالي تعظيمًا، ودعا له بطول البقاء. ثم حيّاه وانصرف من أمامه.

تساءل الناس: إنْ لم يَرْغب أن يشارك في القضاء، ولا يريد أن يَرْكب دابّة الوالي، فما الذي يريده؟

حين دعوه إلى الصلاة، هزّ رأسه ضاحكًا وقال: تخلّصوا من خطاياكم بالصلاة، أمّا أنا فبلا خطايا.

بعد انتهاء الصلاة، ساروا خلفه، وكان هو يسير بهدوء غيرَ مبالٍ بأحد.

قالوا له إنّ أمير البلاد وحامي العباد يطلبك إليه. فهزّ رأسه وقال: الأجدر به أن أَطْلبه أنا إليّ.

حين أَخْبروا أميرَ البلاد وحاميَ العباد بذلك، جُنّ جنونُه وأَمَرَ قائدَ جيشه أن يجهِّزَ الفرسانَ لقتله.

وما هي إلاّ أيّام حتى كان جيشُ البلاد بكلّ أسلحته واقفًا على أبواب المدينة مستعدّاً للانقضاض عليه.

قال له بعضُ المحيطين به: اهربْ لأنّ نهايَتَكَ اقتربتْ. فضحك وقال لهم: لن يصيبني أيُّ مكروه.

ثم سار وساروا خلفه مغيَّبين تمامًا، ولا يَشْعرون بشيء.

قال قائدُ الجيش لأمير البلاد وحامي العباد: أَقترحُ يا مولاي أن نفاوضه، وألاّ نتعجّلَ بإرسال الجيش كي لا يعود رجالُنا خاسرين.

فكّر أمير البلاد وحامي العباد في ما قاله قائدُ جيشه مليّاً، وقرّر أن يفاوضه.

حين أخبروه أنّ أمير البلاد وحامي العباد اقتنعَ بالمفاوضات، ابتسم وأشار للذين يتبعونه بأن يَجْلسوا ويَأْخذوا قسطًا من الراحة ريثما يفكّر في الأمر.

الفصل الثاني

تمنّت امرأةٌ من نساء المدينة على ربِّها أن يَرْزقها غلامًا برأسَيْن، كَيْ يصير أمرُها عجبًا. بعد تسعة أشهر رزق اللّهُ تلك المرأةَ السمينة، التي لا يُعرف لها زوجٌ لكثرة الرجال الذين يَدْخلون بيتَها، الطفلَ الذي تمنّته. وقالوا إنّ والي المدينة ركب دابتَه وسار خلفه جنودُه وأهلُ بيته، وتوجّه هو ومَنْ معه محمّلين بالهدايا إلى بيت تلك المرأة. حين دخلوه كانت منشغلةً بإرضاع الرأسين من ثدييْها، وكانت تتلذّذ بفرح، وعندما رأتْ والي المدينة أمامها، هللتْ وزغردتْ. فاجتمع كلُّ أهل الحيّ وصاروا يُغنون ويرقصون. وكانت فتاةٌ جميلةٌ منهم قد تعرّت وصارت تَرْمي بنفسها في أحضان الرجال وهم يَضْحكون. وكانت نساؤهم يَدْفَعْنها حتى أَرْهقنها، وسقطتْ على الأرض ضاحكةً. فتقدّم منها الرأسان زاحفًا وصار يَرْضع ثدييْها. ويقال ـ واللّه أعلم ـ إنّ الحليب درّ من ثدييها وهي فتاةٌ غير متزوّجة. سترنا اللّه وسَتَرَ عبادَه الصالحين.

الفصل الثالث

يقولون إنّ المفاوضات بين أمير البلاد وحامي العباد وبين ذلك الرجل طالت، حتى إنّ الرأسين بَلَغَ العشرين، فطلبتْ منه أمُّه أن يسير إلى قصر أمير البلاد وحامي العباد ويَطْلبَ منه أن يضمّه إلى جيشه. فسار الرأسان مزهوّاً كأنّه طاووس. وكان الناس قد اعتادوه، فما عادوا يَعْتبرونه

---

* ـ كاتب سوريّ.

أعجوبةً. وكانوا يحيُّونه قائلين: رعاك اللّه فيما أنتَ قاصده، يا ذا الرأسين. وكان يردّ عليهم بغرور: لو أنّ اللّه أحبّكم كما أحبّني، لَمَنَحَكُمْ ما منحني.

أثناء سيره التقتْه امرأةٌ جميلة، فدَعَتْه إليها، فركض غيرَ مصدِّقٍ نفسَه وارتَمَى في أحضانها ناسيًا ما أوصتْه به أمُّه. ويقولون إنّه لم يَخْرج من بيتها إلاّ بعد عامَيْن. ويَزْعم البعض أنّ تلك المرأة الجميلة هي الفتاة نفسُها التي أرضعتْه.

بعد أن خرج من بيتها تابع سيرَه، فالتقاه شيخٌ جليلٌ وقاله له معاتبًا: تبعتَ امرأةً أَغْوتْكَ، ونسيتَ أمّاً أوصتْكَ. فهزّ رأسيْه وقال مبتسمًا: تركتُ لها غلامًا بأربعة رؤوس.

ثم سار مبتعدًا.

الفصل الرابع

ثم إنّ الغلام ذا الرؤوس الأربعة بلغ العشرين، فخرج من بيت أمّه فرحًا، يهزّ كلّ رأس من رؤوسه في جهة. وتوجّه وهو يغنّي بأربعةِ أصواتٍ إلى قصر أمير البلاد وحامي العباد كي ينضمّ إلى أبيه. كان يَهْبط الوديانَ ويَصْعد الجبالَ وهو يغنّي لكل شيء يصادفه. ويقولون إنّ أمير البلاد وحامي العباد كبر وما عاد قادرًا على الكلام، فعَهدَ بأمر المفاوضات إلى أصغر أبنائه لأنّ أبناءه الكبار كانوا قد سافروا لطلب العلم من مشرق الدنيا ومغربها. ويقولون أيضًا إنّ الرجل المفاوض كان قد مات منذ عشر سنوات، فتسلّم ابنُ عمٍ له زمامَ الأمور. ويقولون إنّ ثمّة لقاءً مرتقبًا سيُعْقد بين المتفاوضين في أحد قصور أمير البلاد وحامي العباد.

تمنّى ذو الرؤوس الأربعة أن يَعْثر على أبيه كي يَبْدأ حياته معه. وكان كلّما التقى جماعةً سألهم عن أبيه، فمنهم مَنْ قال له إنّ أباه هو الحارسُ الشخصيُّ لأمير البلاد وحامي العباد، ومنهم مَنْ قال له إنّه يتولّى أمرَ ترتيب المفاوضات بين الطرفيْن لكونه برأسين، وزعم بعضُهم أنّ أحدَ رأسيه قُطِع لأنّه قتل رجلاً وأنّهم علّقوا رأسَه المقطوع على شجرة على قمّة جبل سُمِّي بعد هذه الواقعة «جبلَ الرأس»: «فإذا وصلتَ إلى هناك فسترى رأسَ أبيكَ.»

سار ذو الرؤوس الأربعة غيرَ مصدِّق. وفي مسيره صادف كثيرًا من الزنادقة، ومن الخارجين على القانون، ومن المتسوِّلين، وجميعُهم أخبروه أنّهم ذاهبون كي يصيروا متفاوضين.

الفصل الخامس

قد يكون ما حدث لذي الرؤوس الأربعة فيما بعد أمرًا مثيرًا للاستغراب. فقد التقى امرأةً بيضاء يقال لها «النَّمْشاء،» تغنّي في أفراح الناس. وكانت النمشاءُ عذبةَ اللِّسان، ذاتَ جمال فتّان، فأخذتْ من نفسه، فتبعها. وما إنْ وصلا إلى بيتها حتى دخلتْ فأخرجت سيفًا يقال إنّها ورثتْه عن جدّ لها محاربٍ في جيشِ أمير البلاد وحامي العباد. وبعد أن أَخْرجت السيفَ طلبتْ من الفتى ذي الرؤوس الأربعة أن يُهدي إليها أحد رؤوسه لتزيِّن به جدارَ منزلها، فلم يمانع، وأخذ السيفَ من يدها، وقطع لها رأسَه الذي في اليمين ثم قدّمه لها وهو يقول: واللّهِ لولا جمالُك، وحسنُ قوامك لفقدتِ رأسكِ، لكنّني مفتون، والمفتونُ مجنون، فخذي هذا الرأس وليَكُنْ تذكارًا للقائنا.

وبعد أن قدّمه لها، سمحتْ له بأن يبيت عندها ويأخذَ منها ما تشتهيه نفسُه. وحين أشرقت الشمس طلبتْ منه أن يعطيها رأسًا ليَكون لها تذكارًا لليلتها معه. فحمل الفتى السيفَ على مضض، وضرب به عنقَ رأسه الذي على اليسار، فتدحرج الرأسُ على الأرض، فحملته المرأةُ، وصارت ترقص فرحةً بها. ويقول الرواة ـ واللّه أصدقُ منهم ـ إنّ المرأة تعرّتْ أمام الشاب المفتون وصارت تتراقص أمامه مثيرةً شهوتَه، وإنّها قالت له: ما بخلتَ عليَّ برأسيْك، وإنّي لا أجد ما أَمْنحك إيّاه غيرَ هذا، فهو لك مرةً أخرى إنْ أردتَ.

فانقضّ عليها الفتى ذو الرأسين بعد أن كان ذا أربعة، وظلّ يُفْرغ فيها نَاره حتى انطفأتْ. ثم ارتدى ثيابه وتركها جثّةً هامدةً أمام باب بيتها عاريةً، إلى جانبها رأسُه المقطوعُ وسيفُ جدّها.

الفصل السادس

كان الأمير الصغير ابنُ أميرِ البلاد وحامي العباد يَصْرخ عاليًا طالبًا من مفاوضيه أن يبيِّنوا مطالبهم، حين انفتَحَ بابُ القصر الذي يَتَفاوَضون فيه، ودخل رجلٌ برأسَيْن يبدو عليه الإرهاقُ. فوجئ الأميرُ الصغيرُ بدخوله وصرخ: يا حرّاس، كيف يمرّ هذا الرجل من أمامكم، ويَدْخل القصر ولا توقفوه؟ فطلب ذو الرأسين من الأمير أن يكونَ هادئًا، وجلس بين الرجال، ثم قال وهو يدير رأسيْه ذات اليمين وذات الشمال: أيُّها الأمير يا ابنَ الأمير، ما جئتُكُمْ في حاجة، وإنَّما جئتُكُمْ مفاوضًا، وأطلبُ منكم أمام هؤلاء الناس أن تَسْتمعوا إلى مطالبي دون أيِّ انزعاج.

ويقول مَنْ كان حاضرًا إنَّ الأمير الصغير استشاط غضبًا وصار يسبّ ويلعن، ثم إنَّه صرخ: أنت أيضًا تريد أن تفاوضنا؟ نحن لم نَصل إلى نتيجة مع هؤلاء، فكيف نفاوضك؟

ويقال إنَّ جميع مَنْ في القاعة انفجر ضاحكًا. وبعد ذلك جاء مَنْ يروي لهم دعاباتٍ. وجاء مهرِّج الأمير الصغير وصار يؤدِّي حركات بهلوانيَّة أمام المتفاوضين. واتَّفقوا أن يَتَناولوا طعام الغداء، ثم يَشْربوا أنخاب أفكارهم ولقائهم.

الفصل السابع

ذِكْرُ ما حدث أثناء الوليمة، كما روتْه خادمةٌ تَعْمل في القصر: لقد ذبَحْنا ثمانين خروفًا، وحَشْوناها بالفستق والبندق والجوز واللّوز، ثم وضعناها على نار هادئة حتى نضجتْ، فحملناها للضيوف. كنّا أكثر من مئتيْ خادمة وخادم، وكانوا ثلاثين متفاوضًا انقضّوا على الخراف وصاروا يَنْهشون اللّحم نهشًا كالذئاب. وبعد أن أنْهوا طعامهم نادوا علينا، فاجتمعنا أمامهم، فأمرونا أن نَخْلع ثيابنا. وبعد أن خلعنا ثيابنا مُجْبرين، أمروا كلَّ خادم أن يختار خادمة ويضاجعها أمام أعينهم. اختارني واحدٌ من الخدم أعْرف أنَّه مخصيّ، وصار يَهزّني ويلزّني كيلا يَقْطعوا عنقيْنا. كنتُ أراقبهم من تحت رجليّ: كانوا يتأوهون وينقلبون على ظهورهم كما تفعل المرأةُ في الجماع، حتى شككتُ أنَّهم رجال. ثم صاح بنا الأميرُ أن نكفّ، فكففنا ونهضنا حاملين ثيابَنا نَنْتظرُ ما نؤْمر به. أدار الأميرُ لنا ظهرَه وانصرف مع جلسائه عنّا، فصاروا يتحدَّثون في أمور الصيد والنساء والخمر. وكان بينهم شاعرٌ وقف وألقى قصيدةً أذْكر منها هذا البيتَ: وحربٍ حين خضناها رجالاً رمى كلُّ العبيدِ ثيابَهُم فيها.

ثم أضافت: وبقينا على حالنا نراقبهم، حتى التفت إلينا الأميرُ وأَمَرنا بأن نَلْبس ثيابنا ونُحْضر له الزجاجاتِ المحفوظةَ في أقبية القصر. ركَضْنا نازلين إلى الأقبية، وحملنا الزجاجات والأقداح، ثم وضعناها أمام الأمير وضيوفه. وبعد ذلك أشار لنا الأمير بأن نَنْصرف، فانصرفنا. لكنَّني بقيتُ واقفةً في أحد الممرّات أسْتمع إلى ما يقولونه، وأراقب ما يَفْعلونه.

صبّ الأميرُ الخمرَ في الأقداح، فتناول كلُّ واحد من الجالسين كأسًا ورفعها عاليًا.

صاح الأمير: فلنشربْ في صحّة المفاوضات التي بيننا.

ضرب الجميعُ كؤوسهم بعضَها ببعض، وقالوا بصوت واحد: في صحّة المفاوضات.

ثم شربوا كلَّ ما في كؤوسهم دفعةً واحدة، فعاد الأمير وملأ الأقداح، فتناول كلُّ واحد منهم كأسه. وصاح رجلٌ برأسَيْن: فلنشربْ في صحّة الرؤوس. ثم ضربوا الكؤوس بعضَها ببعض وصاحوا بصوت واحد: في صحّة الرؤوس.

وظلُّوا هكذا على حالهم حتى لم يبقَ شيءٌ في الأرض أو في السماء لم يشربوا في صحّته، وأنهوا كلَّ ما في الزجاجات من خمر. بعد ذلك صاروا يَرْقصون ويغنُّون ويتمايلون كأنَّهم مجانين، وبعضهم تقيّأ على السجاد الفارسيّ الفاخر الذي جلبه أميرُ البلاد وحامي العباد إلى هذا القصر قبل سنوات. ثم طلب رجلٌ رثُّ الملابس أشعثُ الشعر من الرجل ذي الرأسَيْن أن يَقْطع أحدَ رأسيه احتفاءً بهذه المناسبة، فنَهَضَ الرجلُ ذو الرأسَيْن وصار يدور بين الرجال وهو يضحك، ثم استلّ سيفَ الأمير وصار يحزّ به عنقَ أحد رأسَيْه حتى قطعه فتدحرج أمامهم. فوقف الأميرُ وحمل الرأسَ المقطوعَ بين يدَيْه وخطب في الحاضرين، فشكر الرجل الذي قطع رأسه، وأعْلن أمام الجميع أنَّ هذا الرأس المقطوع سيصير شعارًا للمفاوضات التي بينهم.

البوكمال (سوريا)